من تراب الطريق (٤١٤)

ماذا أصاب المحاماة(*) هل تفرقت دماؤها على القبايل؟!

جدد الكاتب الباحث الدءوب ، الأستاذ ماهر حسن الذى أواظب على قراءته سواء فى «المصرى اليوم» أو فى «العربى الناصرى» ـ جدد أحزانى وأشجانى على الحال المخيف الذى آلت إليه المحاماة ونقابتها ، حين قرأت فى بابه بعدد الجمعة ١٩/ ٢/ ٢٠١٠ عن استقالة الزعيم الكوبى الكبير فيدل كاسترو فى مثل هذا اليوم سنة ٢٠٠٨ أأن هذا الزعيم العظيم الذى ملأ الدنيا وسطر صفحات وضاءة لوطنه محتفظا له باستقلاله وكينونته أمام الولايات المتحدة التى تقع كوبا فى مرماها ، والتى حاولت اغتياله غير مرة ، وأمام الاتحاد السوفيتى الذى سانده زمنا ، ووقف إلى جوار كوبا فى الأزمة التى عرفت بخليج الخنازير التى كادت تصل إلى مواجهة آنذاك بين القطبين ، لولا أن انتهت بسحب الصواريخ الروسية من كوبا مقابل سحب أمريكا لأسلحتها التى كانت تهدد الاتحاد السوفيتى من تركيا ، والالتزام بعدم غزو كوبا .

الذى حرك الأشجان وجدد الأحزان ، ما ذكره الأستاذ ماهر حسن من أن هذا الزعيم الكبير المولود ١٣ أغسطس ١٩٢٦ ، كان من خريجى الحقوق ، فدرس القانون فى جامعة هافانا التى تخرج فيها عام ١٩٥٠ ، وعمل بالمحاماة ومارسها فعلا لسنتين قبل أن يخوض لجج الكفاح الوطنى فى بلده ، إلى آخر سيرته التى توجته على قمة الحكم وواحدًا من أبرز زعماء العالم الثالث .

(*) المال ٢/ ٣/ ٢٠١٠ .

لم أكن أعرف حين كتبت رسالة المحاماة أن فيدل كاسترو من خريجى الحقوق، وعمل بالمحاماة، مع أنى كنت أفتش عن حضور المحاماة والمحامين فى الحياة الوطنية والسياسية، والفكرية والثقافية، فى مصر والعالم .. قاصدًا أن أستدعى التفات المحامين إلى ما كانت عليه المحاماة، لنخرجها من وهدة الأزمة التى تحيط بها وتفرقت مسبباتها بين فرقاء نهشوا فيها من كل جانب، حتى انطبقت عليها مقولة أن دماءها النازفة قد تفرقت مسئوليتها بين القبائل، كل بأغراضه ومآربه التى صبت فى ضرب النقابة وتعقيم المحاماة التى لا زالت تنادينا بالعودة إليها.

ذكرت فيما ذكرت فى رسالة المحاماة، عن الحضور الوطنى والعالمى للمحاماة والمحامين، أن المطالع لمدونات التاريخ ومؤلفاته، ومذكرات القادة والزعماء والرؤساء، والدراسات السياسية والثقافية، وما كتب عن المحاماة والمحامين، وتصانيف الحركة الوطنية والحياة السياسية والفكرية فى مصر ـ يلاحظ ظاهرة جلية لا تخطئها عين .. ظاهرة حضور المحاماة والمحامين والحقوقيين بعامة، فى مقدمة المد الوطنى، وفى مضمار السياسة والحكم، وفى زعامات الأحزاب وعضوية ورئاسة الوزارات، ورئاسة وعضوية مجلسى النواب والشيوخ، ومن بعدهما مجلسى الشعب والشورى، وفى ريادة الفكر والأدب والثقافة والصحافة .. يجد منهم «الزعيم»، و «الرئيس»، و«الوزير»، وزعماء الحركة الوطنية، ورؤساء الوزارات والمجالس النيابية والأحزاب، ونجوم الفكر والأدب والثقافة، ورؤساء تحرير الصحف والدور الصحفية .. ذلك واقع حاصل فى مصر وفى العالم العربى، وفى أوربا والهند، وفى أمريكا .. فى إحصائية أوردها دونالد . إم . ريد ـ

الباحث الأمريكى والأستاذ الجامعى صاحب كتاب : «المحامون والسياسة فى العالم العربى منذ ١٨٨٠ ـ ١٩٦٠ »ـ وقد كتبت مقدمة ترجمته لمؤسسة روز اليوسف ضمن سلسلة الكتاب الذهبى .. تقول الإحصائية إنه قد تولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٩٦٠ ـ ٢٥ رئيسا من المحامين والحقوقيين من بين ٣٩ رئيسًا .. يضاف إلى هذه الإحصائية الرئيس ريتشارد نيكسون المحامى الذى ترأس الولايات المتحدة فى السبعينيات بعد تاريخ هذه الإحصائية ، والرئيس الأمريكى لدورتين متتاليتين المحامى بيل كلينتون الذى استطاع أن يفوز فى الانتخابات على جورج بوش الأب صاحب القدرات الفـذة والسجل العريض .. بزوغ نجم المحاماة والمحامين فى أوربا ظاهرة لافتة ، بدءًا من الحركات الاجتماعية ، ومرورًا بالثورات ، ثم بمناصب الوزارة ومراكز الإصلاح .. كان المحامى روبسبير أحد ألمع وأبرز زعماء الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) ، وكذلك كان المحامى لينين الثائر وزعيم الثورة البلشفية الذى غير وجه التاريخ فى روسيا القيصرية ، بينما كان المحامى ألكسندر كيرنكلسى مصلحًا اجتماعيًّا صاحب نظـرية خاصة فـى الإصلاح .. من بين المحامين والحقوقيين فى أوربا برزت نجوم لامعة فى الحرية والوطنية والسياسة والإبداع الفكرى والأدبى والاجتماعى والاقتصادى .. منهم كالفين ، وفرنسيس بيكون ، وميكيافيللى ، وكورنياى ، وليبنتيز ، ومونتسكيو ، وفولتير ، وديدروت ، وهوم ، وبنتام وغيرهم .. بينما تطالعنا فى الهند صورة المحامى غاندى الذى صار اسمه أسطورة للمقاومة السلمية ، واستطاع بها أن يقود حركة إحياء عمت الهند ، وأن يقض مضاجع الاحتلال الإنجليزى فى شبه القارة الهندية .

فى العالم العربى المعاصر تطالعك من المحامين والحقوقيين صورة «الملك» الحسن الثانى ـ صاحب الاتجاه المحافظ ، وصورة الليبرالى الوطنى التونسى الحبيب بورقيبة ، وفارس الخورى الرئيس السورى ، ومن الاتجاه الاشتراكى ـ مع الفارق : كمال جنبلاط فى لبنان ، وصدام حسين التكريتى الذى حكم العراق أمدًا حتى انتهى حكمه بالنهاية المأساوية التى صاحبت الغزو الأمريكى البريطانى للعراق وانتهت بإعدامه فى مشهد مثير أول أيام عيد الأضحى !

من الشام ، برزت أسماء أخرى عديدة .. أمين الجميل المسيحى السورى مؤسس جريدة «الحقوق» ، وهو شقيق اليسارى المعروف شبلى جميل .. ويوسف عساف السورى المسيحى محرر جريدة «المحاكم» ثم جريدة «الشريعة» التى ظهرت ١٨٩٣/ ١٨٩٤ بمبادرة من المحامى والحقوقى المصرى أحمد لطفى السيد (أستاذ الجيل) ، وإسماعيل صدقى الذى شغل منصب الوزارة كثيرا وتولى رئاسة الوزارة المصرية عدة مرات . ومن الرعيل الأول نيقولا توما الذى توفى سنة ١٩٠٥ ، وأحد معاصرى سعد زغلول والهلباوى فى مصر .. وكان مع أمين الجميل ممثلا للأنماط المهنية للمسيحيين السوريين ، وانضم للتيار المتدفق إلى مصر من الشام ، وصار واحدًا من صفوة المحامين فى زمانه .. بالتوازى معه شارل داباس واسكندر عامول من لبنان ، وجميل مرادم من سوريا ، وعونى عبد الهادى من فلسطين ، وتوفيق السويدى من العراق .

زعماء مصر ورجالاتها الكبار ، فى العصر الحديث ، كانوا جميعًا ـ قبل ١٩٥٢ ـ من المحامين والحقوقيين .. مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد

زغلول ، ومصطفى النحاس ، وأحمد ماهر ، ومحمد حسين هيكل ، ومكرم عبيد وغيرهم .. عقد المحامين العظام الذين شغلوا الحياة الوطنية والفكرية والأدبية فى مصر عقد فريد وعظيم ... بدءًا من الزعيم الخالد مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ومؤسس وزعيم الحزب الوطنى القديم ، والذى اختار دراسة «الحقوق» بالذات وانخرط فى «المحاماة» خصيصا ليؤهل نفسه للدور الرائع الذى أداه فى خدمة القضية الوطنية حتى وافته المنية وهو فى منتصف العقد الرابع من عمره .. تتابعت معه ومن بعده نماذج رائعة فى الحركة الوطنية وما يغذيها من سياسة واقتصاد وإدارة وفكر وأدب وصحافة .. محمد بك فريد ثانى زعيم للحزب الوطنى القديم ، ضاقت قيود الوظيفة بالنيابة عن تطلعاته لخدمة القضية الوطنية ، فتركها إلى رحاب المحاماة ـ غير مبالٍ بالنظرة التى كانت سائدة فى ذلك الزمان وتصنف المحامين تصنيفًا سلبيا ! .. هذا التصنيف الذى جعل أباه يبكى ويشعر بالخزى ويشكو إلى الإمام محمد عبده فى جنيف أن ابنه قد ترك النيابة إلى المحاماة ! .. سعد زغلول زعيم الأمة ، الوزير ، ورئيس الوزراء ومجلس النواب ، وعبد العزيز فهمى قطب الوفد وثورة ١٩١٩ ، ثم رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، ووزير الحقانية الذى استقال احتجاجًا على موقف الحكومة من كتاب الشيخ على عبد الرازق : «الإسلام وأصول الحكم» ، وأحد كواكب مجمع اللغة العربية ، وأول رئيس مصرى لمحكمة النقض المصرية (١٩٣١) .

يوم أن كتبت هذا لم يكن قد مَرَّ بى أن فيدل كاسترو كان بدوره إحدى جواهر هذا العقد الفريد للمحامين ، فأعادنى ما أورده عنه الأستاذ ماهر حسن إلى ما كانت عليه المحاماة ، وما صارت إليه !